

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً
استيعاب وتجاوز.

**Critical Concepts in the Noble Qur'an:
Comprehensiveness and Confirmation as Cases in Point.
An Attempt in Assimiliating and Transcending**

د. عبد الله أخواض*

جامعة السلطان مولاي سليمان- كلية الآداب والعلوم الإنسانية -بني ملال، المغرب،
Akhoud67@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/26 تاريخ القبول: 2021/04/04 تاريخ النشر: 2021/06/30

الملخص:

تندرج الدراسة التي نقدمها ضمن قانون المراجعات المنهجية والنقدية، التي تسعى إلى استعادة مصطلحات ومفاهيم الوحي؛ في التأسيس لمنظور معرفي ومنهجي، قادر على منافسة الأنساق المعرفية المغايرة، وبأدوات أكثر فاعلية. وهو ما يمكن اكتشافه عبر الحفر المعرفي الذي مارسه القرآن الكريم من خلال منهجية الاسترجاع للرسالات السماوية السابقة، وفق قواعد منهجية نقدية صارمة.

ومن شأن هذا الاسترجاع المعرفي والمنهجي، وفق مفاهيم ومصطلحات الوحي، أن يمكن العقل المسلم المعاصر، من استكمال شروط النهوض، استلهاماً لمنهجه، لا استنساخاً لتاريخه، وتأسيس حفريات المنهجية المعرفية المعاصرة، في سياق فلسفة نقدية؛ تسعى إلى إيجاد موقع لمصطلحات الوحي ومفاهيمه ضمن مفاهيم الأنساق المعرفية الأخرى، وتعزيز كفاياتها التحليلية والنقدية والحوارية، وأبعادها الوظيفية، وتصحيح الاختلالات التي تصيب المعرفة النسبية.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة؛ التصديق؛ المنهج النقدي؛ الثقافة؛ النموذج المعرفي.

* المؤلف المرسل

Abstract :

The present study is inscribed within the law of systematic and critical reviews, which aim at restoring the terminology and concepts of the Qur'anic Revelation. The aim is to establish a cognitive and methodological perspective that is capable of competing with the different cognitive systems, while using more effective tools. This is indeed possible by unearthing the process of cognitive sounding used by the *Noble Qur'an* through the methodology of retrieving/recovering and exposing the previous divine revelations, according to strict methodological and critical rules.

This cognitive and systematic recovery, according to the concepts and terminology of the *Noble Qur'an*, is susceptible to pave the way for the contemporary Muslim mind to carry out and complete the conditions for revival – while being inspired by its method, and without seeking just to reproduce its history. It can also be helpful in establishing the foundations of contemporary epistemological methodology, within the context of a critical philosophy. Again, the aim is to adopt and accommodate the Qur'anic terms and concepts to other epistemological systems, on the one hand, and to enhance its analytical, critical and dialogue competencies, and to correct some imperfections that mark relative knowledge, on the other hand.

Key Words: Comperhensiveness; Confiormation; Critical Method; Culture; Epistemological Model .

مقدمة:

تبدأ عمليات البناء في كل نسق معرفي، من عُدَّة المفاهيم والمصطلحات الأصلية والأصلية التي يمتلكها وبالمواصفات والمحددات التي تكتسبها من أطرها المرجعية، وهو ما يمكنها من الاستمرار في العطاء والتجدد التلقائي، كلما اعتراه خلل، أو شعر بخطر يهدده لهذا تعتبر المفاهيم اللبنة التي منها تؤسس المنهجية، ومن ثم فما من عمل منهاجي إلا ويكون قوامه عملية بناء للمفاهيم.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

فالعملية ليست من باب الترف الفكري، بل تقع موقع الفرض العلمي العيني الذي لا تعذر الأمة بتركه؛ لأنها دخلت في مفاهيم غير مفاهيمها، وتكلمت بلسان غير لسانها، فحصل فيها من التمرد على الهوية، والمرجعية الحضارية باسم المفاهيم ذاتها، فدخل عليها الدخيل من المناهج والتصورات والاعتقادات، فكان المآل ما يرى الجميع ويقر، تشوهات في اللسان والفكر والعمل والمؤسسات.

إن الاعتراض على الجواب المفهومي المستعار، - بتعبير طه عبد الرحمن - تماثله دعوة وضرورة إلى إنشاء جواب مفهومي مستقل بقضايانا المعاصرة، فتكون الحاجة إلى وضع مفاهيم جديدة أشد إلحاحاً من أي وقت مضى، فاستقامة المفاهيم في العقل، استقامة في منهج التفكير، ولأن المفاهيم هي لغة التعبير والرفض والقبول والنظر وتحرير المنظور المختلف فيه، هي مضمون ما نقصد.

تعتبر المفاهيم مستودعات للمعاني والدلالات، كثيراً ما تتجاوز البناء اللفظي وتتخطى الجذر اللغوي لتعكس رؤية للعالم وفلسفة الحياة⁽¹⁾ هي وعاء معرفي يحمل خصائص المجتمع الذي وُلِدَ فيه، وعبر عن طموحاته وآلامه وأماله، لذلك ظلت المفاهيم أهم ميادين التدافع بين الثقافات والحضارات عبر التاريخ وسيظل هذا التدافع قائماً ما دام الإنسان حياً يمارسه مسؤوليته في هذا الكون.

يبدأ التعافي في تاريخ الأفكار والأنساق المعرفية، من قدرتها على بناء المفاهيم وتحديد اصطلاحاتها؛ فتقدر على البلاغ والحركة الطبيعية، وتملك الحرية في محاوره غيرها، كيفما شاءت وفي أي وقت شاءت. وقد ارتبط وعي المسلمين عبر التاريخ بقدرتهم على امتلاك لغتهم، اصطلاحاتها، و مفاهيمها، ولغة غيرهم اصطلاحاتها، ومفاهيمها.

قدرة مكنتهم من فتح مساحات للحوار بين مفاهيمهم الأصلية الشرعية المستمدة من الوحي، وتجربتهم الواقعية، ومفاهيم غيرهم؛ فأبدعوا وفق منهجية استوعبت محددات المفهوم الأصل وسماته، ومحددات المفهوم الدخيل وسيكولوجياته. منهجية ارتبطت بالوعي الذي شكله الوحي في عقولهم، و انطلاقاً من شبكة المفاهيم التي نحثها أو أعاد تصحيحها فأدمجها في بوثقة جديدة تحمل سمات المجتمع الجديد.

(1) انظر طه جابر العلواني، مقدمة كتاب الحضارة - الثقافة - المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالته المفهومية، نصر محمد عارف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المفاهيم والمصطلحات (1) ط 1994، 2، ص 7.

وقد عبّرت المعرفة التاريخية عن هذا النضج والوعي في تداول المفاهيم والمصطلحات، من خلال اقتدارها على ضبط مسارات وتحولات تلك الأنساق المفاهيمية وعلاقتها بمختلف فروع المعرفة، حين تحررت من الخوف وتمسكت بالأصول وأمنت بدرجة النفع والمصلحة الراجعة في الاستفادة من مفاهيم غيرها.

لكن الانفتاح غير المنضبط على الأنساق المعرفية المغايرة، وضعف الاتصال الواعي بمفاهيمه المرجعية، ولّد في عقل الفكر الإسلامي المعاصر تشوهات أفقدته القدرة على بناء نموذج معرفي، فجري استنبات مفاهيم مغايرة لطبيعة هذا النموذج، بل في كثير من الأحيان مفاهيم مهمة وملتبسة، وغير قادرة على الوفاء بالمسؤولية الإبداعية والتجديدية في أشكال التعبير في ثقافتنا المعاصرة؛ وهو ما يحفزنا لتدارك الفارق وردم الهوة بين هذا العقل ومفاهيمه المرجعية وعملية الإبداع والتجديد المعرفي، فلا نظرية معرفية بدون مفاهيم واصطلاحات متصادفة ومتعلقة.

وهنا الحاجة إلى مصطلحات ومفاهيم القرآن الكريم وأهميتها البالغة في إنتاج المعرفة وفعاليتها في بناء الوعي المثمر والراشد، نظراً لقوة ومتانة المفهوم الوجهة في الوحي، و على أبعاده الوظيفية المتعددة بحكم مجموعة من المحددات التي تميزه عن المفاهيم الإنسانية النسبية.

فالقرآن الكريم من خلال بنيته المصطلحية وکلياته المفهومية بناء نقدي علمي موضوعي أولاً: من حيث مصدر هذه البنية الذي هو الله تعالى، الذي لا يتحيز إلا للحق، وثانياً: من حيث الخطاب فالله تعالى خاطب العقل الإنساني بما يليق من الكلمات وبأسلوب فيه من الجمال والأخلاق ما يحفظ كرامته، والمنطق العلمي المشفوع بالأدلة والبراهين.

ويشكل مفهومي التصديق والهيمنة بؤرة المنهج النقدي في نسقية المنهجية المعرفة الإسلامية البنائية المنبثقة من الوحي، لكنه نقد يتجاوز كل التصنيفات المعروفة في مجال الدراسات النقدية القديمة والحديثة والمعاصرة، بحيث يغلب عليها طابع الذاتية ومحكومة بهواجس وخلفيات ايديولوجية، وتفتيت المعنى، وتخريب القصد، في وقت تسعى الممارسة النقدية التي يؤسس القرآن الكريم لأخلاقياتها وقواعدها؛ إلى اكتشاف علاقات التكامل في المعرفة الإنسانية، وتعزيز فرص الحوار والتقارب، والبحث عن المعنى.

وتتناول الدراسة هذه القضية، من خلال أربعة مباحث أساسية:

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

المبحث الأول: سياق ورود مفهومي التصديق والهيمنة:

يُعَيَّر مفهوم النقد عن قدرة العقل على ممارسة نشاطه في اكتشاف مساحات جديدة في المعرفة الإنسانية، وبحث في شروط وإمكانات إنتاج معرفة جديدة، والتأسيس لأدواتها الفاعلة، وقدرة على تنظيم أسلوب التفكير، وترتيب مفردات تلك المعرفة في سياق ثقافي يسعى إلى تجاوز تعثرات الواقع وتحدياته، واستشراف المستقبل وطموحاته. فالنقد ممارسة منهجية تتوخى المساهمة في بناء المعرفة الراشدة، والتغلب على عوامل التقويض والتشويه التي يمارسها العقل الأعلى، وفرز المعطيات الثقافية القادرة على تشكيل الوعي المنهجي، وبناء النسق المعرفي المتوازن.

ويرد مفهوم النقد في القرآن الكريم، بمعاني متعددة ومتكاملة في وظائفها، فتارة يأخذ معنى الهدم، في سياق التعامل مع الأفكار والمصطلحات السالبة للوعي الإنساني، كالشرك والعادات التي ورثها هذا الوعي من الآباء والثقافات المجاورة، كما يأخذ معنى الاتمام والبناء، فهو يبني ويؤسس للقيم المعرفية الإيجابية، ومتمم لما هو مشترك بين الثقافات والحضارات وفيه نفع للإنسانية.

فالمنهج الاسترجاعي الذي مارسه القرآن الكريم مع الثقافات الإنسانية وأديانها، ينبني على قاعدتين أساسيتين: قاعدة الاعتراف (التصديق) بما أنتجه العقل الإنساني من معارف قابلة للامتداد في الأنساق الأخرى، وتحديد درجة النفع، والتعاون معها في إنجاز المعروف العلمي، وبناء المشترك الإنساني. ثم قاعدة التصحيح (الهيمنة) لما يعتري تلك الأنساق من مظاهر الوهن والخلل، وإنتاج الشكوك المعرفية والمنهجية لحماية العقل الإنساني من الأوهام والأباطيل الفكرية.

لهذا ينأى سياق ورود مفهومي الهيمنة والتصديق عن السقوط في مثالب المناهج النقدية التي اخترعها الإنسان من التحيز أو البعد عن القيم، والمحددات الموجهة للممارسة النقدية الفاعلة والمنتجة للمعرفة وللسلوك الحضاري الذي قصده الوعي، وهو الاعتراف الذي يتجاوز مجرد الاعتراف، إلى التصديق لكن في الوقت ذاته يمتلك القدرة على التصحيح والتجاوز، وإتيان البدائل المُشَقَّعة.

ولمفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم وجهتان : «الوجهة الأولى إزاء الكتب السالفة؛ فهناك تصديق لما صح من هذه الكتب ثم هيمنة عليها في تكامل تام معها. والوجهة الثانية إزاء ما يطور ويعتلى في حياة الناس وارتفاقاتهم من ممارسات وما هو مستقر فيها من أعراف. والتصديق في هذه الوجهة عبارة عن إقرار الصالح من كل ذلك بالسكوت عنه أو الثناء عليه، و تغيير الطالع بالحديث عنه وكشف مساوئه. وتتم الهيمنة في القرآن الكريم في اتجاهات متعددة، وهي اتجاهات كلها تجاوزية غير إستراتيجية [جامدة] وهي تجاوزية تتجلى من خلال التوسعة مع الاحتفاظ على كل القوة التي تستبطنها الحقائق الموسّعة ويجري ذلك بطريقة متنامية، إذ بعد كل مرحلة من مراحل الهيمنة، يبنى على الحقائق الجديدة لكي تتم الهيمنة بها بدورها على مفاهيم وحقائق مستقرة أخرى وتتم توسعتها»⁽¹⁾.

والتصديق والهيمنة «استمرارية وتواصل بين الأنبياء في رسالات السماء (التصديق) وفي الاستيعاب التقويمي والتصحيحي النهائي الذي قامت به رسالة الختم (الهيمنة)»⁽²⁾، على مستوى المفاهيم والسلوكات والتشريعات، إنها «عملية استرجاع للثابت المشترك في رسالات الرسل بعد غربلته ونقده وتمييز صحيحه من باطله.. وإعادة تقديمه بعد نقده وتحليله وتزكيته وإزالة الخصوصيات من خطاب الشعب المرسل إليه، وعرض الكليات المشتركة الخالية من أي تحريف وتغيير، والهيمنة عليه لجعله صدقاً محضاً جارياً في ذات السياق الذي يجعل من رسالات المرسلين رسالة واحدة..»⁽³⁾، على مستوى الغايات والمقاصد الكبرى من إنزالها، فالتصديق استرجاع لحقيقة تلك الغايات والمقاصد لإعادتها إلى حالة الصدق التي جاءت بها ونزلت عليه، وليس تصديقاً لما حرف وزيف.⁽⁴⁾

(1) العبادي، أحمد ، الوحي والإنسان، نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، دار النيل للطباعة والنشر ط1/2013. ص55.

(2) شبار، سعيد، الاجتهاد والتجديد، دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1/2007. ص 379.

(3) العلواني، طه جابر، القرآن المجيد وخطابه العالمي ص29 . نقلاً عن سعيد شبار الاجتهاد، م.س، ص 381.

(4) انظر العلواني، طه جابر، لإكراه في الدين، إشكالية الردة والمرتدين من صدر الاسلام حتى اليوم، مكتبة الشروق الدولية، ط2003، 1، ص25.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

وتستمر هذه المنهجية وتتكامل في الوحي الخاتم وهي الإشارة الواردة في الحديث النبوي الشريف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه أجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين.»⁽¹⁾، مما يجعلها أصولاً كلية في التعامل مع خبرات مجموع الإنسانية بثقة عالية، وتحدد في الحديث طبيعة العلاقة بين الرسائل السماوية ووظيفة النبوة الخاتمة، المرتبطة بالإتمام والكمال والجمال.

يشكل حدث تحويل القبلة كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143].

تحولاً معرفياً منهجياً، في علاقة المنهج المعرفي القرآني الكوني بالمنهج المعرفية السابقة الحصرية التي تمثلها الأديان السماوية السابقة، من خلال الأسس النقدية المنهجية التي رسم القرآن معالمها من خلال مفهوم التصديق والهيمنة ومن خلال أيضاً «نقد الموروث الروحي في التاريخ، واسترجاعه في سياق ترميم ما طرأ على الرسالة الإلهية من تحريف، وإكمال الدين، وختم النبوة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ليتِم بذلك ما تعهد به الله لهذا الدين من عالمية عبر نسخته للأديان والرسالات وإظهاره دين الحق.»⁽²⁾ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح/28].

(1) صحيح البخاري: كتاب المناقب باب خاتم النبيين الحديث رقم (3535).

(2) حللي، عبد الرحمن، منهجية الرسائل ودلالات الختم، مجلة إسلامية المعرفة السنة العاشرة ع40، 2005، ص54.

وقد فسر مفهومي التصديق والهيمنة بمعاني متعددة، فسر بالعالى والرقيب، ومن أسماء الله تعالى المهيم، وقيل مشتق من أمن، وأصله اسم فاعل من آمنه عليه، بمعنى استحفظه به⁽¹⁾ قال ابن عباس: المهيم المؤتمن. وقال الكسائي: المهيم الشهيد، وقال غيره الرقيب. والظاهر من مجموع هذه الأقوال وغيرها، أن المهيم على الشيء هو من يقوم بشؤونه ويكون له حق مراقبته والحكم في أمره بحق، والقيام بالأمر يستلزم المراقبة والائتمان والشهادة عليه⁽²⁾.

وللطاهر بن عاشور كلام نفيس في هذا السياق أثناء تفسيره لآية التصديق والهيمنة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48] يقول: « وفي الآية إشارة إلى حالي القرآن الكريم بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع مقرر له من كل حكم كانت مصلحته كلية ثم تختلف باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق، أي محقق ومقرر، وهو أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كل ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة مراعي فيها أحكام أقوام خاصة»⁽³⁾.

ويضيف ابن جرير الطبري تعليقاً على الآية: "مصدقاً" أي بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه، و"مهيمناً" شهيداً عليها أنها حق من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها. وأصل "الهيمنة" الحفظ والارتقاب⁽⁴⁾ فيفيد معنى الشهادة، والحفظ، والأمانة، والمراقبة والحكم بالحق.

(1) ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، 221/6.

(2) انظر رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم للشيخ محمد عبده، المشهور بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة ط 2 / 1947، 411/6.

(3) المرجع نفسه، 221/6.

(4) الطبري، بن جرير (224هـ/310هـ) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1/2001، ج 488/8.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

أما رشيد رضا فيقول تفسيراً لآية التصديق والهيمنة «أنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين ، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب على الإطلاق وهو القرآن المجيد، هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص (التوراة) وعن كتاب موسى بـ (الانجيل) مصداقاً لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والانجيل أي ناطقة كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاؤوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم»⁽¹⁾.

وسار الإمام الشاطبي في السياق ذاته حين قال: «لقد صح أن القرآن لا اختلاف فيه (...) ولما تبين تنزهه عن الاختلاف، صح أن يكون حكماً بين جميع المختلفين، لأنه يقرر معنى هو الحق، والحق لا يختلف في نفسه، فكل اختلاف صدر من مكلف فالقرآن هو المهيمن عليه. [كما] في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 59]»⁽²⁾.

فيكون القرآن الكريم بهذه المعاني هو المرجع الأول الحافظ لما سواه من الشرائع السماوية والوضعية، والحاكم عليهما، وعلى تصرفات الخلق وتديير اختلافاتهم بداية ونهاية، ومراقبة ما يصدر عنهم من أفكار ومعتقدات وفلسفات، ورؤى، لأنه المرجع الأعلى الذي ترد إليه تلك الفلسفات والرؤى، لا العكس، وهو ما يجعل لهذه المفاهيم القدرة على ممارسة النقد الموضوعي، في كل ما ينتجه العقل الإنساني.

فهذا التحول المرتقب في وعي الإنسانية جاءت الرسائل السماوية السابقة تبشر به كما ورد في نبوءة عيسى عليه السلام بالنبي محمد ﷺ، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6] واستواء الحقيقة الكاملة في الوعي البشري باكتمال الدين وختمه.

(1) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، م.س، ج 410/6.

(2) الشاطبي، أبو اسحاق ، الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط 2 / 1991 ، 480/2.

المبحث الثاني: التصديق والهيمنة: أفقاً للحوار النقدي الثقافي والمعرفي:

مفهوم التصديق والهيمنة استرجاع للوحدة العضوية بين ما انفصل في الأديان السماوية السابقة، وفي وعي حاملها، على أساس قاعدة التصحيح المعرفي والمنهجي لهذا الوعي المقلوب من خلال الوحي الخاتم، ومن خلال مفهومي التوسط والعالمية الذين شكلا أحد المحددات المعرفية والمنهجية لرسالة الإسلام، حيث يلتحم البعد الديني الوجودي للإنسان، بالبعد المحلي والكوني لهذا الوجود.

في مقابل ذلك ترتقي هذه المفاهيم بالممارسة العقلية، والفكرية نحو أفق أوسع في التواصل والحوار مع كل ما ينتجه العقل الإنساني؛ من خلال رؤية محايدة تتوخى البحث عن الصواب والخير في هذه العلاقات الإنسانية، وتؤسس لـتَجَاوُرٍ واضح بين كل ما ينتجه هذا العقل من المعارف، والعلوم في إطار ناظم منهجي كلي توحيدي مستوعب لمتغيرات وثوابت الواقع الإنساني، ويتجاوز كل أشكال القطائع المعرفية والمنهجية التي ولَّدَتْها الفلسفات الوضعية في علاقتها مع الأنساق المغايرة، لكنه يتميز بخاصية الاعتراف - التصديق - بما يحمله الآخر من الخير والنفع، من خلال الحوارات التي يجريها مع تلك الأنساق؛ وهي قدرة منهجية على تجاوز كل الخطابات المتشنجة، سواء تعلق الأمر بما ينتجه العقل العربي الإسلامي، أو بما ينتجه غيره.

وتجربة الإنسان مع المقدس "الوحي"، تجربة سابقة على كل الحركات الجدلية التي اكتشفها الفكر فيما بعد، بل إنها كانت أنموذجاً لها، واستطاعت أن تشق الطريق أمام الفكر المنظوم، ومن خلال كشفها عن المجهول والكينونة والمعنى والحقيقة في عالم تسوده الفوضى وباعث على الخوف والقلق⁽¹⁾، مما يتيح للعقل المسلم المعاصر إمكانات هائلة؛ في محاوراة الأنساق المعرفية المنهجية المغايرة بثقة تعيد "للتثاقف" قواعده الصُّلْبَةَ وتحمي من الذوبان، ويسترجع معها فصول الإبداع المعرفي وَفْقَ نماذجه التحليلية وقدراتها التفسيرية، وهوية مفاهيمها وقيمها المرجعية.

ويمكن استثمار هذه المحددات المنهجية في تجاوز المنهجيّات - التلقيفية والتوفيقية الانتقائية أو الساعية إلى الانخراط الكلي في وعي الآخر - التي سقط فيها عقل الأمة الجماعي في علاقته مع الحضارة الغربية - في مرحلتين: مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة - باعتبارها

(1) انظر مريتشيا الياده، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة وتقديم سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة ط2007/1، ص42.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز. وحدة قياسية معيارية في القبول والرفض لما يموج في حياتنا المعاصرة من الأفكار والمعتقدات المنهجية العابرة للقارات، وتؤسس للموقف العلمي العدل من كل إفرازات هذه المرحلة المعاصرة.

وأعتقد أن الحضور القوي لهذه المحددات في النسق الفكري للعقل العربي الإسلامي، كان وراء كثير من إبداعات الأمة في عصور التفاوت الحضاري، فأخذ عن غيره دون مركبات نقص؛ لكن استعان بحاسته النقدية التي اكتسبها من هذه المحددات المرجعية وأسس لقواعد منهجية أعادت ترتيب المعرفة الإنسانية وحافظت عليها وحمتها من التزييف، كما نقلتها إلى الأجيال الأخرى بأمانة ودقة، فكان علماء الأمة «هم حماة الذمة الحضارية للأمم التي سبقتهم وعاصرتهم»⁽¹⁾ من خلال تقليد علمي منفتح ومتكامل واستيعابي، كل «هذا من شأنه أن يخلق واقعاً فكرياً آخر في علاقته بذاته وفي علاقته بغيره»⁽²⁾، ويتيح فرص أكبر للإصلاح والبناء والتعاون بعيداً عن شروط الإكراه والكرهية بين الثقافات والحضارات؛ ويؤسس لتفاعل حضاري كوني يتسم بقدر هائل من السعة والمرونة، وقدرة على الاستيعاب لكل الاختلافات مهما بلغت من التعقيد.

بهذه المواصفات فإن «المنهج القرآني مهيم بالوعي والتحليل على عناصر المرحلة التطبيقية الأولى، كما هو مهيم بالوعي والتحليل على كل المراحل السابقة منذ بدء الكونية وعبر استمراريتهما. والمنهج تجريد وتطبيق يستنفذ كل الطاقات العقلية بكافة وسائلها الحضارية المعاصرة، ويعيد تركيز الجهد البشري المتفوق في مجالات العلوم والفلسفة ومختلف الدراسات ضمن كليتها الواحدة في التجربة الوجودية الكونية. المنهجية تقابل بين الكونية والوعي القرآني بها، ومن هنا تصبح الشمولية وأقصى قدرات التحليل وسيلتين حضاريتين لا بد منهما في التعامل مع القرآن»⁽³⁾.

(1) الجابري، إدريس نغش، العلوم الإسلامية مدخل الانبستمولوجيا، وتاريخ العلوم، مجلة الدليل، تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، مجلة دورية علمية محكمة في تاريخ العلوم الإسلامية وفلسفتها، المجلد الأول العدد الأول، 1434هـ/2013م، ص47.

(2) شبار، سعيد الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 2011، ص18.

(3) حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى ط 3 / 2012، 740/2.

بل مهيمن على المناهج التي أنتجها العقل الإنساني لأنها مناهج «تفكيكية وتحليلية» غير قادرة على (التركيب) لأنها لم تنطلق أساساً من (الغاية التكوينية للخلق الكوني) فاختصرته في حدود ملاحظاتها التجريبية المباشرة في عالم "المشيئة" و"التشيؤ الطبيعي"، إنساناً كان أو طبيعة.

وليس هدف هذه المساقات المنهجية إبطال المعرفة العلمية المعاصرة بجدليتها وصيرورتها ونسبيتها واحتماليتها، ولكن (إعادة توظيف) هذه المعرفة العلمية في إطارها الكوني المرتبط بالغاية الإلهية (...) في الخلق والتكوين، بما يجعل المعرفة الدينية (الوحي) أساساً منهجياً في فهم الإنسان لنفسه، وعالمه، ومصيره، وصولاً إلى المفهوم التوحيدي⁽¹⁾ للمنهجية المعرفية القرآنية.

لكن دون أن يعني ذلك إلغاء الاستيمولوجيا المعاصرة ومناهجها، وما تقدمه⁽²⁾ «من "محددات نظرية" كالصيرورة والجدلية والمتغيرات النوعية وتاريخانية الأفكار (...) ليس فيما تقدمه لنا من نسق حضاري أو نهايات فلسفية وضعية»⁽³⁾. بل يفتح معها أفاقاً للحوار، طارحاً أمامها مفاهيم المنهجية المعرفية القرآنية، ومحدداتها، متجاوزاً بذلك المواقف المتشنجة التي ألفتها في تاريخ الفكر العربي الإسلامي التي دخلت في منطقين: منطق القبول ومنطق الرفض المطلقين الزائفين لمناهج الغرب، ويؤكد على الموقف السليم من هذا الكسب الإنساني وهو مد جسور التعاون والتقارب، لكن بمنهجية معيارية مهيمنة هي منهجية الوحي وفلسفتها التوحيدية الكونية.

وهو الطريق الثالث الذي ينتظر من الباحث المسلم المعاصر أن يؤسس لمقدماته المعرفية: ولأفق في الحوار مع التيارات النقدية في الفكر الغربي المعاصر التي ما تزال تمتلك القدرة على التجديد والنقد الجذري لتيارات الفوضى والتفكيك وتحافظ على قدر كبير من حيويتها في الامتداد والتأسيس لمنطقة حوارية جامعة بينها وبين التيارات الفكرية الأخرى.

(1) حاج حمد، محمد أبو القاسم ابستيمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ط1/2004، ص 32-33

(2) مع صعوبة الفصل في كثير من الأحيان بين المناهج والنماذج الإدراكية التي أسست لها الاستيمولوجيا الغربية ونهاياتها الفلسفية، إلا إذا كان الجهد جهدين، جهد الاستيعاب لفلسفتها، وجهد إعادة قراءتها بمضامين فلسفتنا التوحيدية المتجاوزة والمهيمنة، وهو الجهد الذي ينبغي أن يستغرق تفكير الباحث المسلم المعاصر وفق شروط المرجعية التوحيدية والسياقات التي يحياها.

(3) حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، م.س، 117/1.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

حوار يستمد منطقه من منطق القرآن نفسه، باعتبار عالميته وشهادته على الناس الأمر؛ الذي يحقق للعقل الإنساني حالة السواء التي تخرجه من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم، إلى اكتشاف النسق المرجعي الذي يحاكم هذه المفاهيم⁽¹⁾، ونواتجها المعرفية والمنهجية، ومساراتها الحضارية.

كما يتم تشغيل هذا المفهوم من خلال «الضبط التأويلي» بتحديد أصوله وقواعده، وتبيان موقع النص والعقل ودور الإنسان ومسؤولية العالم؛ حيث يقوم القرآن المجيد من خلال هذا الضبط بتنقية ما اعترى العقل الجماعي المسلم بسبب تسرب بعض ما كان في الأمم بفعل التداخلات التي تقع من الناحية المفاهيمية والانكسارات المعرفية التي تحصل تحت تأثيرات اجتماعية أنثربولوجية وأخرى تاريخية. كما نجد أن الهيمنة في القرآن المجيد تتجلى من خلال فتح المفهوم وفتح المعتقد بطريقة تجعلهما مستمرين شاملين مستوعبين لكل عصر ولكل مصر؛ فتلتقي الهيمنة بهذا المعنى مع خصيصة الشمول والاستيعاب في القرآن الكريم⁽²⁾.

يأبى منطق القرآن أن تسحب منه هذه المحددات، أو حصرها فيما سبق من الكتب السماوية إنما دلالاتها ماضية إلى يوم القيامة، وقاضية على ما سواها من المفاهيم والمحددات النسبية، فصرف هذه الدلالات والمحددات على ما ينتجه العقل الإنساني من أفكار، وفلسفات وقوانين وسياسات ليكون هذا الوحي ناطقاً بها؛ استرجاعاً لعالمية خطابه وكماله وخاتمته، فهو المصدر المؤسس «لأنواع لا نهائية من المعارف البشرية بحيث يعطي أشكالاً مختلفة من الوعي والمعرفة تبعاً لإمكانات تطور العقل البشري في التاريخ، وبهذا تفهم هيمنته وتصديقه على الزمان والمكان، وأن كل معارف زمان ومكان معينين مهما تنوعت وتعددت إنما هي إمكان حضاري محكوم بالسقف المعرفي الحاصل في المنتج لجيل ذلك الزمان والمكان ومصدرية الوحي لشمولية المعرفة تبدو في تلك الهيمنة والتصديق على الفعل الإنساني في مقتضيات الزمان والمكان»⁽³⁾.

(1) انظر حاج حمد، محمد أبو القاسم، منهجية القرآن المعرفية، م.س، ص 35.

(2) العبادي، أحمد، الوحي والإنسان، م.س، ص 56 - 57.

(3) العضراوي، عبد الرحمن، آليات التداخل المعرفي، وتجديد الباراديجم المنهجي والتزيلي في العلوم الإسلامية ضمن كتاب العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟ أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء دار أبي رقيق للطباعة والنشر. الرباط، سلسلة ندوات علمية (3) ط 2011/1، ص 278.

يمكن للأنموذج المعرفي الإسلامي القائم على المحددات المنهجية التي تحدثنا عنها، أن يقدم أكثر من مجرد مبادئ ونظريات، وهناك عدة عوامل تؤهل هذا الأنموذج - الذي يتجاوز النقد إلى التأليف والبناء - إلى أداء مهام في الفكر الإنساني ليس «أقلها البناء التصوري الشامل المرتبط بنسقتها الثقافي الذي تعززه الطبيعة المتكاملة لأخلاقيها العملية»⁽¹⁾ لهذا فإن «إعادة قراءة القرآن بوصفه مرجعية كونية (...) ستساعد إلى حد كبير في إثراء وضبط المناهج المعرفية نفسها التي نستخدم مدخلاتها العلمية النقدية التحليلية، إذ إن هذه المناهج نفسها ستخضع في أثناء الاستخدام للنقد والتقويم القرآني. فنحن ننطلق بداية من أن المرجعية القرآنية مستوعبة ومتجاوزة في الوقت ذاته لمختلف هذه المناهج الصادرة عن تجربة الوعي البشري»⁽²⁾.

مع بيان قدرة هذه المفاهيم - الاستيعاب والتجاوز - على الدخول في حوار نقدي مع المناهج الوافدة من ثقافة الغير، أو التي ينتجها عقل الأمة في علاقته التفاعلية مع أصوله المعرفية، لكن دون أن تنتهي هي الأخرى إلى توظيفات وضعية دغمائية استلابية لوعي الإنسان، وقدرته على التجدد والعطاء العلمي الموصول باستمرارية النقد والاكتشاف، أو التفكيك المعمم المخرب للمعنى، أو النقد البنيوي المنغلق على النص.

يقول طه جابر العلواني وهو بصدد تثبيت هذا الأفق المعرفي الإنساني وفق هذه المنهجية: «إنَّ القرآن المجيد . بعد أن يستوعب تراث الحضارات، وينقده يقوم بتجاوزه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:134]. هنا ينقل القرآن البشريّة من نموذج إلى آخر، ومن نسق قياسي إلى آخر وهو حين يمارس نقده وتفكيكه فيما سبق يوضح ضرورة التمييز بين مناهج ومقاييس ومعايير محاكمة الأنساق الثقافيّة والحضاريّة، وينبّه إلى «ضرورة التعدّدية المنهجيّة» المستعملة في ذلك، فيحاكم تلك الأنساق بالنسبة لظروفها والتحدّيات التي واجهتها. وبذلك يكون في غاية الاستقامة والعدالة في تقويماته ونقده، وميز ما يستوعب وما لا يستوعب من قواعد وكيّانات تلك الأنساق»⁽³⁾.

(1) أبو الفضل ، منى، النظرية الاجتماعية المعاصرة نحو طرح توحيدي في أصول التنظير ودواعي البديل، مجلة إسلامية المعرفة السنة الثانية ع49/6.

(2) حاج حمد، محمد أبو القاسم، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، م.س، ص 50.

(3) موقع طه جابر العلواني: (www.alwani.net) تاريخ الزيارة 2015/11/11.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

فهذه المنهجية، تمكننا حسب طه جابر من تجاوز القراءات المتحيزة في النظر إلى تراثنا الحضاري أو تراث الحضارات المغايرة، دائرة الرفض المطلق، أو القبول المطلق، أو الانتقاء اللامنهجي⁽¹⁾، إلى الأفق الذي يطمئن إليه العقل الجماعي للأمة، ويعود عليه بالنفع، ويعفيه من تكرار التجارب الفاشلة في مشاريع القراءة والتأويل في الفكر العربي المعاصر، التي عملت على تقويض المفاهيم المركزية في الوحي والتشكيك في قدرتها ومنسوبيها.

وهي إشكالية منهجية وقعت فيها الفلسفة الإسلامية قديماً وحديثاً فيما يخص موقفها من التراث الفلسفي الخارجي، وتراثنا الكلامي الإسلامي، بين إلهيات الفلسفة وإلهيات علم الكلام حين غاب عنها هذا المنهج النقدي، أي التصديق المعرفي، والتصديق الإيماني⁽²⁾، فوقع الخلط في الموقف الفلسفي العادل الذي يراعي حقوق الثقافات المختلفة، فدخلت علينا كثير من المعارك الوهمية.

يملك مفهوم الهيمنة على مستوى الحوار الثقافي والمعرفي، إمكانات التجاوز لتراكم معرفي ظل في الحضارة المعاصرة، يوجه مسار الحوارات المغشوشة والمستغفلة للعقل المعاصر، كما يمكن الاستناد إليه في التأسيس لنظرية نقدية في فكرنا العربي الإسلامي؛ تملك من مقومات النقد العلمي ما لا يملكها غيرها بحكم مرجعيتها المنفتحة والمستوعبة، وتمكّن من التعايش بين الباراديغمات والأنساق المعرفية المختلفة، ضمن مناخ يسوده الاحترام والتقدير للجهد.

ليس مفهوم الهيمنة في القرآن بالمفهوم السياسي المتسلط، بل «بمعنى هيمنة المثال الجاذب بما فيه من قيم مشروطة برعاية كل ما هو موجود من اجتهادات إنسانية أو من رسالات سابقة أو حتى من أديان غير منزلة والسمو بها نحو الممكن من المنشود»⁽³⁾، فقد عانى عقل الأمة من فوضى مناهج النقد المستوردة، فوضى ترجمتها أعمال هذا العقل، فالنظريات النقدية التي تَمَثَّلَتْ واحتضنها فكرنا المعاصر عبر أزمنة متعددة، جاءت تحمل عدداً من إشكالاتها المستوردة، الأمر الذي شوه عملية النقد في هذا الفكر، وجعلها في كثير من الأحيان خارج عمليات البناء المثمر؛ لأن «النظرية النقدية تظل لصيقة بالبيئة التي

(1) انظر الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006، ص66.

(2) انظر المرزوقي، أبو يعرب، دور الفلسفة النقدية العربية ومنجزاتها، موازنة تاريخية بين ذروتي الفكر الفلسفتين العربية والألمانية، المقالة الثالثة، النقد المتبادل بين الفكرين الديني والفلسفي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2012، ص126.

(3) المرزوقي، أبو يعرب، دور الفلسفة النقدية العربية ومنجزاتها، م.س، ص 118.

أنبتتها على الرُّغم من وجود تلك السمات التي تمكنها من الانتقال من بيئة إلى أخرى، السمات التي تحملها بوصفها منتجاً إنسانياً يحمل خصائص عامة تتقارب الثقافات بموجبها بعضها بعضاً. فإذا كان هذا هو الحال لماذا لم تتطور حتى الآن نظرية أو نظريات نقدية تحمل سمات الثقافة العربية؟⁽¹⁾.

سؤال مضاعف يحمل مؤشرات أزمة حقيقية حول الثقافة النقدية العربية الإسلامية المعاصرة، ويسائلها عن الإمكانيات التي تحملها هذه الثقافة في أفق التأسيس لنظرية نقدية تحمل خصوصياتها، وهي إحدى العيوب المنهجية التي رافقتها في مسيرتها المعاصرة، حيث اكتفت بما أنتجه الغير، وإن حمل في بعض الأحيان سمات النقد العربي شكلاً، أما المضمون فظل خارج هذه التسمية.

على عكس الفكر الغربي - بكل تياراته - الذي استطاع أن يؤسس مدارس نقدية استوعبت إشكالات إنسان هذا الفكر بشكل من الأشكال، مرحلة عبرت عنها أسماء مدارس وازنة في الحضارة الغربية، نذكر على سبيل المثال لا الحصر "مدرسة فينّا في علم الاجتماع"⁽²⁾ و"مدرسة فرانكفورت" التي استثمرت خبرات مدارس متعددة وسابقة، كالماركسية والكانتية والوجودية⁽³⁾ في بلوغ هذه المرحلة من الفكر النقدي الذي لاشك أنه ساهم في رسم معالم مرحلة جديدة في تاريخ الفكر المعاصر، ولا ينكر ذلك إلا جاحد مكابر لعطاء كشف عن جزء كبير من الانهيارات الكبرى في فعل الحداثة وما بعدها.

فإذا استطاعت مدرسة فرانكفورت أن تستند في قراءتها لواقعها من خلال استيعابها «للتراث الفلسفي الأوروبي من أجل توظيف محتواه النظري النقدي وأدواته المنهجية التحليلية، داخل عملية الكشف عن محركات الصيرورة الاجتماعية وعلاقة مؤسسات الدولة بالفرد وحيثته (...) وقدرتها على إعادة اكتشاف الماركسية على مستوى الطاقة النقدية الكامنة وراءها وقدرتها على التحليل بعيداً عن الأغلال الأيديولوجية، التي كبلت بها

(1) البازعي، سعد، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، ط1/2008، ص 88.

(2) مدرسة فينّا هي المدرسة التي أسسها عالم الطبيعة والفيلسوف الألماني موريس شيلك مع هانز هان وفليب فرانك وعالم الاجتماع أونيرات وكرناب لمعالجة موضوعات الاستقراء والاحتمالية ومفاهيم الكوانتيم.

(3) انظر طاهر، علاء: مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، مدخل إلى نظرية النقد المعاصرة، منشورات مركز الإنماء القومي ط1 ص 6.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز .
من خلال الممارسات البيروقراطية للأحزاب ورجال السلطة.⁽¹⁾؛ فإنها فعلت ذلك إيماناً منها
بارتباط تلك الآليات النقدية بواقعها وآمها وطموحاتها.

فإن "النظرية" النقدية العربية لم تقو على أن تجترح لنفسها مساراً نقدياً - لا أقول
بالكيفية ذاتها لطقوس النقد الغربي - يُعبر عن طموحات الواقع العربي ويحفظ حقوقه
الثقافية واستقلاله، رغم الادعاءات التي نصادفها بين الحين والآخر في مدونات الفكر
النقدي العربي حول التأسيس لحركة نقدية عربية خالصة، سواء تعلق الأمر بالنقد الأدبي
والثقافي، أو النقد التاريخي والفلسفي، فقد ظلت هذه الأشكال التعبيرية عندنا تنطق بلسان
غير لسان الواقع العربي.

يمنح الحق في الاختلاف، العقل العربي الإسلامي الحق في إنشاء ممارسة نقدية قائمة
على أصول الفكر النقدي المستمدة من مرجعياته المتعددة والمتنوعة في مقدمتها "مفاهيم
الوحي" "الهيمنة والتصديق، الختم والنسخ التكامل..." التي تحتاج إلى تخصيص منهجي
ومعرفي في مجالات النقد المرتبطة بآليات إنتاج العقل الإنساني - سواء تعلق الأمر بما يرد
إلينا من ثقافة الآخر، أو ما ينتجه عقل الأمة -.

مفاهيم نسترجع معها قدرات النقد غير المتحيز إلا للحق والصواب المعرفي الإنساني
في أفق تحرير المفهوم من متعلقات ومخلفات النسبية الواقعية التي فهمت على أساس
السيطرة والغلبة والقهر، فلا يستوي قصد هذا المفهوم في علاقته مع الممارسة النقدية إلا
إذا وظف بحمولاته الإيجابية الانفتاحية التي تتوخى فتح مساحات أوسع للحوار النقدي
والاختلاف والتعدد والنقد الإيجابي، إذ كل عملية نقدية هي في واقع الحال، عملية ارتقاء
بالفكر والممارسة، من خلال عملية التقويم والتصويب والاعتراف.

هكذا استطاع المسلمون أن يتجاوزوا كثيراً من الثنائيات المضرة، كما استطاعوا في
الوقت ذاته استيعاب «التعددات الدينية والثقافية والحضارية كلها في إطار "عالمية
الخطاب الإسلامي" وإذا كان أقصى ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة هو إقرار التعدد فإن
"عالمية الخطاب الإسلامي" عملت وتعمل على استيعاب التعدد بعد الإقرار به [التصديق]
ودفعه في اتجاه "العالمية" إلى عامل دفع في إطار تنوع بشري إيجابي تظل عليه أنوار الهدى
ودين الحق التي لا تسمح ب بروز أية أسباب أو عوامل للانقسام الديني والطائفي، فالإسلام

(1) طاهر، علاء، م.س، ص 6.

قد جعل من نفسه محور جذب لا محور تناوب وطرده، كالمركزية الغربية المستعلية المعاصرة، كما جعل الإسلام من الأمة المخرجة قطب تأليف واستيعاب [الهيمنة]»⁽¹⁾.

تفعيل مفهومي الهيمنة والتصديق بخصائصهما الذاتية [الحياد - الاستيعاب - الشمولية الكمال... إلخ]، في منظومة الفكر النقدي؛ من شأنه أن يحرر المعرفة المعاصرة ومفاهيمها من التشوهات الأيديولوجية، ويمنحها إمكانات التحرك بحرية ويزودها بمنظورات أكثر قدرة على الحوار، ويستعيد هذا المفهوم العلاقة الوظيفية بين الطاقة الإبداعية للوحي والطاقة الإبداعية للإنسان في علاقة توافق تام بين المعرفة الدينية، والمعرفة العلمية المكتسبة، فالعلم البشري غير قادر على تجاوز المعرفة الدينية ومفاهيمها مهما بلغ من قوة البرهان والدليل بل هو في حاجة ماسة إلى قبس نور الوحي، وهداياته.

لهذا فإننا «في حاجة إلى تحريك كل هذه المحددات باعتبارها إمكانات وقدرات اجتهدية وإبداعية كامنة، تجعل الإسلام قادراً على التأطير والتنظير من مداخل مختلفة ومتعددة؛ علمية، معرفية واجتماعية... وأكبر من أن يختزل في نزال ومعارك سياسية، أو أن يقوده تيار أو مذهب، إن كان هو نفسه سياسة تديرية عامة وفق منهجه ومنظوره الكلي وليس التبعيضي»⁽²⁾، متى وَجَدَتِ الأوعية الحاضنة القادرة على التشغيل وفق منظورها ومنطقها التكاملي وسياقها المرجعي - النصي والواقعي -، لا وفق منطق الاختزال المخل بوظائفها المتعددة.

ف« القرآن أكبر من كافة المناهج المعرفية النقدية التحليلية، لابعنى أنه يرفضها، ولكن ببعنى أنه مهيم عليها بمنهاج كوني يستوعبها جدلياً ويسقط عنها (...) التباساتها الفلسفية الجزئية. فالقرآن لا يلغي ثنائية الإنسان مع الطبيعة كما وصلت إلى ذلك فلسفة العلوم الطبيعية، وإنما يأخذها بهذه الجدلية الثنائية ليقطع عليها [عنها] طريق التواصل باتجاه المذهب المادي ليعيد صياغتها في جدلية كونية تضيف البعد الغيبي إلى هذه الثنائية

(1) طه جابر العلواني: الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ط2003، ص 67.

(2) شبار، سعيد، الثقافة والعملة، وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، دار الإنماء الثقافي ومركز دراسات المعرفة والحضارة، سلسلة أبحاث ودراسات فكرية (2) ط2014/1، ص109.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

المادية، ذلك حين يحدد القرآن جمع القراءة المادية مع القراءة الغيبية في قراءة واحدة.⁽¹⁾ تستوعب إشكالات الإنسان الواقعية، في أفق توحيد عناصر، ومركبات الوعي المعاصر. فشرط تحقيق الإبداع في الأمة، مرتبط بقدرة عقلها على بناء أصوله النقدية والمنهجية على مرجعياته، وتفكيك المرجعيات المستعارة، وهذا درب طويل يحتاج إلى الاشتغال العميق على هذه الأصول المعرفية والنقدية، بمنطق تلك المفاهيم المرجعية ذاتها، وبأفق معرفي يلتزم الحوار مع ما تنتجه فلسفة العلوم من مناهج وظواهر علمية، أفق الاعتراف والتصويب، التعديل والتميم، النسبية والخطأ، الشك واليقين، كما نجد عند كارل بوبر في فلسفته القائمة على قابلية عطاء العقل الإنساني على فرضية التكذيب والاختبار والتصحيح⁽²⁾، للمحتوى العلمي والمنهجي الذي تنتجه النظريات العلمية، على اختلاف مرجعياتها.

المبحث الثالث: التوحيد وبناء المنهج النقدي في المعرفة المعاصرة.

يُعبر مفهوم التوحيد - باعتباره مفهوماً معرفياً منهجياً - عن تنامي الوعي الفلسفي الوجودي لدى الإنسان من الحلقات الصغرى الضعيفة التي كان يخضع لها، [الشمس، القمر، الحجر، الكواكب...] إلى الحلقة الكبرى المهيمنة على كل المخلوقات ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ﴾ [النمل: 60]. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِمِثْلِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ ۚ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: 4].

(1) حاج حمد، محمد أبو القاسم، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، قضايا إسلامية معاصرة، ط1/2004. ص 314

(2) انظر كارل بوبر، منطق البحث العلمي، ترجمة وتقديم محمد البغدادي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2006.

وتشكل الرؤية التوحيدية الكونية نسقاً من المعارف، وآلية نقدية للأنساق المعرفية التي ينتجها الإنسان وللرؤى التي يؤسسها حول ذاته وللعوالم المحيطة به و آلية « منهجية في بنائية التكامل المعرفي على مستوى المنهج النقدي القرآني في تصحيح المعارف ومراجعتها وعلى مستوى محورية الصور المعرفية مهما تعددت عناوينها ومقاصدها (...) واعتبارها النسق المفسر لمكونات المعرفة الوجودية وغائيتها في عالمي الغيب والشهادة»⁽¹⁾.

مفهوم الرؤية التوحيدية مفهوم تصوري فلسفي وجودي يحدد الرؤية العامة للكون، الزمان والمكان وللمصير الإنساني، وهنا نفهم عمق التدافع بينه وبين مفهوم الكفر الحامل لمشروع ووعي مناقض، كما يلغي كل التصنيفات والثنائيات التي درجت عليها التصورات والاعتقادات الإنسانية في المجال الفكري أو الاجتماعي، أو ما أصبح يعرف بالدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية أو الاقتصادية، أو السياسية؛ بهذا يؤسس هذا المفهوم لهرمية جديدة وترايبية منطقية في المعرفة النقدية الإنسانية يعيد لها انسجامها الفطري والطبيعي بين الوسيلة والغاية، بين طابعها النظري والعملي، مستنداً في ذلك إلى محددات أساسية:⁽²⁾

■ **محدد ثنائية الخالق والمخلوق:** الأول نظامه سرمي أبدي لابتداء ولا نهاية له. الثاني متعلق بالمكان والزمان والخبرة والخلقة ويشمل كل المخلوقات. لكنهما مختلفان من حيث الوظيفة والكينونة.

■ **محدد التصورية:** حيث العلاقة بين نظامي الخالق والمخلوق، علاقة تصورية قائمة على الفهم بوصفه أداة تحصيل المعرفة واستثمار السنن الإلهية الميثوتة في عالم الشهادة.

■ **محدد الغائية:** فالكون خلق لغاية مرسومة، كل شيء فيه بقدر وأجل معلوم، يتحرك فيه الإنسان وفق الإرادة الإلهية التي لا تتعارض مع إرادته الحرة.

فيتجه الجهد العقلي للإنسان المسلم إلى استيعاب هذه القاعدة المنهجية ويبني عليها خلاصاته الفكرية، فيركب و«يوالف بين المعطيات التي يتوفر عليها، ويرد بعضها إلى بعض بحسب التشابه والتماثل ويوحدها في معيار دلالي يكون أساساً لمبدأ واحد تنخرط فيه جهود الفهم والتعليل، وتنبي على أساسه الرؤى والحلول.»⁽³⁾، بل على أساسها «يتوصل الفكر إلى أحكام معرفية موحدة المعيار، فتندسجم نتائجها ولا تتناقض سواء كان ذلك في المعرفة

(1) عبد الرحمن العضراوي، آليات التداخل المعرفي وتجديد، م.س، ص 276.

(2) انظر المرجع نفسه ص 53.52 - 54.

(3) عبد المجيد النجار: عوامل الشهود الحضاري(2)، دار الغرب الإسلامي، ط1/1999، ص 166.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

الكونية بما تقوم عليه من وحدة القواعد في التجريب، أو في المعرفة الشرعية بما تقوم عليه من وحدة المبدأ والغاية»⁽¹⁾، بما يمثله هذا القانون من قواعد ناظمة لحركة العقل المعرفية بالشكل الذي يمنحه القدرة على الإنتاج والاكتشاف، والاشتغال داخل متحد في الرؤية والأفق، ويمنعه من الزيغ والتهيه ويُرشّد مساره.

كما تقوم هذه الرؤية على ثلاث أسس منهجية تشكل جوهر المعرفة النقدية الإنسانية:⁽²⁾

1. أساس الوحدة: الذي يحول العناصر المختلفة إلى بنية منتظمة تتميز فيها مراتب الأفضلية أو درجات الأهمية. فيتجه هذا الأساس بالمعرفة الإسلامية من حيث التصور المنهجي إلى الانسجام والتناسق والمتّحد في نسق موحد للحضارة الإسلامية سواء كانت المفاهيم آتية من مصدر محلي أو خارجي، فيتم إعادة تكوينها وفق العلاقات الجديدة والتصورات الكامنة في نسقنا المعرفي والحضاري لتأخذ شكلها الجديد.

2. أساس العقلانية: يقوم هذا الأساس على ثلاثة قوانين ومبادئ فرعية تتعلق بطبيعة المعرفة التي يكتسبها الإنسان من مصادرها:

- المبدأ الأول: رفض جميع ما لا يتطابق مع الواقع، وهذا المبدأ يحمي المسلم من الظن أي من تكوين أي ادعاء بالمعرفة لا يسنده دليل أو إثبات.
- المبدأ الثاني: يتعلق بعدم التناقض ويشكل هذا المبدأ جوهر العقلانية، فتنتفي كل الثنائيات المتقابلة التي ورثها العقل المسلم "الوحي والعقل" "المقدس والمدنس" "الديني والدنيوي" في ثقافته المعاصرة ويشيد لنفسه عالماً من الأفكار نقي المصدر والوجهة.
- أما المبدأ الثالث: فهو الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة والقدرة على فتح حوار معرفي معها، الأمر الذي يحمي المعرفة الإسلامية من الحرفية والتعصب الذي يؤدي إلى الركود.

(1) المرجع نفسه، ص 166-167.

(2) انظر إسماعيل الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1/ 1998، ص 134-136.

3. أساس التسامح بما يشكله من ضمانات أخلاقية في نظرية المعرفة، وسعة في الأفق وقدرة على الانفتاح بما يغني تجربته من كسب الحكمة الإنسانية دون تعصب أو انغلاق مميت، وفق الهرمية المعرفية الإسلامية القائمة على التكامل والوحدة والوسطية. وما يفسر قوة هذا المفهوم - التوحيد - ما يمتلكه من طاقات استيعابية تصورية استطاعت أن تغير الخريطة المفهومية التقليدية للإنسان العربي.

ويتدرج هذا النقد ليلبغ أعلى درجاته في تقويم الرؤى الوجودية التي أسست لها الأديان السماوية السابقة، أو التي أفرزتها الفلسفات الإنسانية النسبية، فعملية النقد العلمية، هي تلك العملية التي تسعى إلى استئناف التشغيل بعد التصفية والتنقية، أما عملية النقد الساعية إلى النقض والإلغاء فهي عملية إبادة.

لهذا فإن الحاجة ماسة اليوم لإعادة النظر في الخطاب النقدي العربي الإسلامي ومفرداته. فالعياء الذي لحق هذا الخطاب؛ إنما جاء من ثقل المفردات النقدية التي نشأت بعيداً عن همومه ومرجعياته وحالت دون أن ينجز مهمة الإبداع في ممارسته، وبالتالي جاءت مخرجاته تحمل كثيراً من العيوب والأعطاب .

ومن شأن هذا الاسترجاع لمفاهيم الوحي، أن يمكن العقل العربي المسلم، من تأسيس حقريات المعرفة الإسلامية المعاصرة، في سياق نقدي يسعى لإيجاد موقع لمصطلحات الوحي ومفاهيمه، ضمن خريطة المصطلحات والمفاهيم الكونية، وتعزيز قدراتها التفسيرية والتحليلية. والكشف عن أبعادها الوظيفية، وتصحيح العيوب المنهجية والمرجعيات التي واكبت المعرفة الإنسانية النسبية.

المبحث الرابع: في بعض شروط أعمال منهجية التصديق والهيمنة.

نقتصر في هذا السياق على ما أورده الأستاذ أحمد عبادي في دراسته الموسومة بـ "الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي" دراسة اتجهت إلى اعتبار هذه المنهجية مرحلة أساسية في التأسيس لأصول النقد في المعرفة المعاصرة وتجاوز الأصول النقدية المؤسسة على أصول فلسفية مناقضة لأصول الوحي والفترة الإنسانية من التفكيكية العدمية والتبسيطية الاختزالية إلى الفلسفة النفعية المادية. وتفعيل هذه المنهجية واكتشاف معالمها يحتاج إلى شروط⁽¹⁾.

(1) عبادي، أحمد، الوحي والإنسان، م. س، 60 - 61 - 62 - 63.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

الشرط الأول الأساس : هو شرط اعتقادي بامتياز بحيث يعتقد الباحث اعتقاداً جازماً أن القرآن المجيد كلام الله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، ﴿مَا قَرَّظْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام/38]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل/89]، فتتوفر عنده ضمن هذا الشرط مجموعة من المنطلقات التي تلزمه بالجدية القصوى، وهو يبحث في القرآن المجيد. فنخرج بهذا الشرط من متاهات الاعتقادات التي رهنت مفاهيم الوحي للمناهج النسبية والتاريخانية، كما تفعل التأويلية المعاصرة التي سعت إلى جعل القرآن الكريم يتماثل مع غيره من النصوص البشرية.

✓ الشرط الثاني : إن إرادة البحث في قضية الهيمنة بطريقة تأسيسية ، وجب النظر إلى القرآن الكريم باعتباره بناء متكاملاً وإغفال له يدخل الباحث في مضمار القراءة العنصرية. بناء لا يهمل حرفاً واحداً وينظر إلى القرآن في بنائته الكلية. وبالتالي فحين نؤمن ونسلم بأن القرآن بناء ، سوف نراجع وننقد مناهجنا القائمة في أفق المواءمة المنهجية مع هذه البنائية المباركة .

✓ الشرط الثالث : مرتبط بالنماذج المعرفية، أو الأنساق القياسية أو الأطر المرجعية التي ينطلق منها الباحث؛ فإن كانت مغلفة فاته الكثير ، بخلاف الأمر إن دخل وهو مطرح بين يدي كتاب الله ، مستعد لأن يتجاوز ما في ذهنه من الأطر المرجعية والأنساق القياسية والنماذج المعرفية.. مع ضرورة استدامة الانفتاح والحفاظ على الوعي التام بأنه إنسان محدود وبأن هذه المحدودية تقتضي التكملة.

✓ الشرط الرابع : هو شرط لازم لبحث قضية الهيمنة في القرآن الكريم، هو أن يكون الباحث في القضية مستحضراً في كل لحظة كونه إنساناً ينتمي إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان، يشكل معها وحدة، تعيش نفس التحديات والهموم ويسعى إلى مشاركتها في تلقي إشارات القرآن الكريم بخصوص الهيمنة.

إن استئناف النظر في القرآن وفق المحددات أعلاه في موضوع التصديق والهيمنة من شأنه أن يعزز إمكانات وقدرات جديدة في توليد الحلول لإشكالات الإنسانية المعاصرة بِنَفْسٍ جديد يربط بين ظاهر الحياة الدنيا والآخرة من خلال إعادة تركيب النسق المفاهيمي المؤطر لهما.

وتبدو هيمنة مفاهيم الوحي بارزة من خلال مفهوم التوحيد الذي يمثل صيرورة دائمة في التجاوز للأنداد الزائفة عبر تاريخ الوعي البشري، إلى الاستقرار على مفهوم مهيمن جامع وشامل هو مفهوم "رب العالمين" لتحرير هذا الوعي من الزوائف والأخلاق الضارة حيث يتنامى هذا الوعي نحو أفق الكونية العريضة ويتجاوز التقسيمات العرقية البائدة. ونجد لهذا الأفق وهذه الهيمنة أبعادها في خطبة حجة الوداع، على اعتبار هذا الأفق هو الكمال الجامع لمواصفات الإنسانية الحائزة على شروط الاكتمال والاستواء، حين تجاوز فيها الإعلان النبوي التصنيفات المستندة إلى العرقيات والألوان، - كما نجد في المنظومات المعرفية المهيمنة في الواقع المعاصر-، إلى معايير جديدة تستند إلى البعد الأخلاقي المحايد "التقوى" « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبْلَغْتُ »، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟"، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟" قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟"، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ". قَالَ: وَلَا أَذْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا. كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبْلَغْتُ"، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: " لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ" (1)

هذا جزء من القطيعة والتجاوز لثقافة التباهي بالآباء، والعرق السامي والتمركز، ولمفهوم الإنسانية الواحدة التي يتماثل فيها البشر و«تنتهي إلى تسوية البشر الواحد بالآخر مما يلغي الخصوصيات بل والأبعاد المركبة ويصبح الإنسان الغربي بالتدرج هو المثل الأعلى والنمط الكامل، وعلى الجميع أن يقلدوه ويلحقوا به، مما يعني أن التطور البشري يتبع ما يسمى بنموذج أحادي الخط، أي إن مسار التاريخ واحد بالنسبة لكل الشعوب، وبأنه سيصل إلى ذروته أو نهايته، حينما تهيمن الحضارة الغربية الحديثة وتبني الشعوب

(1) مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 2001/1، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ حديث رقم (23489).

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز. نموذجها "الحضاري".⁽¹⁾ في حين يتجه إعلان حجة الوداع إلى تجاوز هذا الخط النمطي، إلى التأسيس للإنسانية المشتركة المتعددة الأبعاد، نؤمن فيها بالوحدة الطبيعية للإنسانية، وبالتعدد المعرفي.

ويكتمل البناء تدريجياً ليصنع الأخوة الإنسانية في أبهى صورها وتجلياتها في وحدة عضوية تسقيها كلمة "إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد" التي تستقطب كل الأبعاد المكونة للإنسانية. إنها النبوة الكاملة المهيمنة بمنهجها المعرفي والحضاري على الأنساق المعرفية السابقة، والتالية في كل زمان ومكان.

(1) المسيري، عبد الوهاب، العلمانية والحداثة والعولمة، حوارات، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق ط1/2013، ص17

خاتمة:

يأتي استرجاع مفاهيم القرآن الكريم في الحوار المعرفي المعاصر، في سياق التدافع بين المرجعيات المعرفية المغايرة، وكذا البحث عما يقوي مناعة المعرفة الإسلامية المعاصرة، ويعينها على تجاوز الابتلاءات المتعددة، التي ابتليت بها سواء تعلق الأمر بابتلاءات التراث، أو ابتلاءات الحداثة. وسياق آخر، هو سياق التأسيس للمنهجية المعرفية البنائية في فكرنا المعاصر؛ التي تملك آفاقاً مغايرة للمنهجيات الاختزالية من خلال قدرتها على تجاوز المنطق المعكوس - التلفيق والتوفيق والمقاربات والمقارنات - الذي هيمن على فكر المدارس الإصلاحية العربية الإسلامية، كما تمثل دعوة صريحة لتخطي العقلية التراثية المفقرة، والعقلية الحداثية المدمرة؛ إلى الاستمداد من مصادر تملك هوية محايدة، والقدرة على التوليد المرجعي للمفاهيم، وإمداد العلوم بمبررات استمرار عطاءاتها المتجددة بحكم طبيعتها المرجعية القائمة على محددات منهجية استيعابية، تتيح للمعرفة في كل زمان ومكان إمكانات التجدد التلقائي؛ كلما اعتراها القصور والضعف أولاً بحكم ثبات مصادرها والضمائنات التي توفرها لها والدعوة المستمرة إلى النظر في آيات الآفاق والأنفس والتفكر فيها، والانفتاح على ثمرات العقل الإنساني وخبراته، وإدراك ثوابته ومتغيراته ثانياً.

فالريادة التاريخية الحضارية للأمة، منطلقها الأساس الوحي في علاقته التكاملية مع الكون والإنسان، فكانت مدارسها قبلهً لمختلف العقول الإنسانية مشفوعة بقيمها المرجعية وبعيد ثقافي منفتح، كما أن التجديد في علوم الأمة لم يسبق أن حدث بمعزل عن معطياتها الحضارية والمرجعية، وحاجة الإنسانية المتزايدة، وهو ما تتوق إليه المنهجية النقدية البنائية، وتسعى إلى توطينه في النظام المعرفي الإسلامي المعاصر، هي آفاق استعادة المنظور التكاملي للمعرفة وتسخيرها في خدمة الإنسان وتحقيق مقصد التعبد؛ بتحصيل المعرفة النافعة المثمرة في العاجل والأجل.

المفاهيم النقدية في القرآن الكريم: الهيمنة والتصديق أنموذجاً. استيعاب وتجاوز.

المصادر والمراجع:

1. ابن جرير الطبري (224هـ/310هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، ط1/2001.
2. أبو اسحاق الشاطبي، الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2/1991.
3. أبو يعرب المرزوقي، دور الفلسفة النقدية العربية ومنجزاتها، موازنة تاريخية بين ذروتي الفكر الفلسفتين العربية والألمانية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1/2012.
4. أحمد العبادي، الوحي والإنسان، نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، دار النيل للطباعة والنشر ط1/2013.
5. إدريس نغش الجابري، العلوم الإسلامية ومدخل الاستمولوجيا وتاريخ العلوم، مجلة الدليل، تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، مجلة دورية علمية محكمة في تاريخ العلوم الإسلامية وفلسفتها، المجلد الأول العدد الأول، 1434هـ/2013م.
6. إسماعيل الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1/1998.
7. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (194.252هـ) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، مكتبة الرشد ناشرون المملكة العربية السعودية. الرياض ط1/2006.
8. الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1/2006.
9. سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، ط1/2008.
10. سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد، دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1/2007.
11. سعيد شبار، الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، 2011.
12. سعيد شبار، الثقافة والعولمة، وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، دار الإنماء الثقافي ومركز دراسات المعرفة والحضارة، سلسلة أبحاث ودراسات فكرية (2) ط1/2014.
13. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984،
14. طاهر علاء، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، مدخل إلى نظرية النقد المعاصرة، الطبعة الأولى منشورات مركز الإنماء القومي، لبنان.
15. عبد الرحمن العضراوي، آليات التداخل المعرفي، وتجديد الباراديفم المنهجي والتزيلي في العلوم الإسلامية ضمن كتاب العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟ أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمها الرابطة المحمدية للعلماء دار أبي رقرق للطباعة والنشر. الرباط، سلسلة ندوات علمية (3) ط1/2011.
16. عبد الرحمن حلي، منهجية الرسائل ودلالات الختم، مجلة إسلامية المعرفة السنة العاشرة ع2005، 40.
17. عبد المجيد النجار: عوامل الشهود الحضاري (2)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/1999.
18. عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحدأة والعولمة، حوارات، تحرير سوزان حربي، دار الفكر، دمشق ط1/2013.

19. العلواني، طه جابر ، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ط2003، 1.
20. العلواني، طه جابر، لا إكراه في الدين ، إشكالية الردة والمرتدين من صدر الاسلام حتى اليوم، مكتبة الشروق الدولية، ط2003، 1.
21. كارل بوبر، منطق البحث العلمي، ترجمة وتقديم محمد البغدادي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2006.
22. محمد أبو القاسم حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 2004/1.
23. محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، قضايا إسلامية معاصرة، ط 2004/1.
24. محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى، بيروت ط 3 / 2012.
25. محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية ، دار الساقى بيروت، ط1/2011
26. محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ط 2003/1.
27. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم للشيخ محمد عبده، المشهور بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة ط 2 / 1947.
28. مريتشيا الباده، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة وتقديم سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة ط1/2007.
29. منى أبو الفضل ، النظرية الاجتماعية المعاصرة نحو طرح توحيدى في أصول التنظير ودواعي البديل، مجلة إسلامية المعرفة السنة الثانية ع1996، 6.
30. موقع طه جابر العلواني: (www.alwani.net) تاريخ الزيارة 2015/11/11.